قصة من القرآن الكريم

بقلم : د. محمد احمد خلف الله

وقصة يوسف قصة انسانية ، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الاول ، فتؤثر فى سير الاشخاص وتوجههم نحو الخير أو نحو الشر فى حياتهم ، ثم هى قصة رحبة واسعة ، تتعدد فيها الشخصيات ، وتتلون الاحداث ويجرى فيها الحوار هينا ليّنا رقيقا ، وتتوزع فيها العناصر التوزيع الذى يتطلبه الفن القصصى ، فهى موزعة بمقدار ، تظهر وتختفى حسب الظروف الطبيعية ، وحسب ما يحيط بالأبطال من أحداث .

ثم هى ـ من حيث البناء القصصى ـ أجود قصة فى القرآن . ولعله من أجل هذا عدها القرآن من أحسن القصص ، حين قال : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** » .

***

تبدأ القصة بتمهيد هو رؤيا يوسف : « **اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم** » . ونفهم نحن من هذا التمهيد ماسيدور فى القصة من أحداث تلم بيوسف فنعلم أنه سيكاد له ، ونعلم أن هذا الكيد لن يقضى عليه فسينجيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه ويجعله نبيا كما اتمها على أبويه من قبل .

والتمهيدات تظهر بكثرة فى هذا الطور من القصص ، فنلحظها فى قصة موسى فى القصص :

« **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم**

ما كانوا يحذرون » كما نلحظها فى قصص عيسى فى سورة مريم وفى سورة آل عمران ، والتمهيدات هنا قصص بأكملها فقصة يحيى أو زكريا فى سورة مريم تمهد لقصة عيسى وتهيىء لها الأذهان ، وقصة مريم فى آل عمران توحى بقصة ولادة يحيى ، وهى بدورها أيضا تمهد لقصة عيسى عليه السلام ·

***

نبدأ القصة بعد هذا التمهيد فى شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به يدفع اليها الحسد والغيرة ، ونسمع حديث القوم حول الطريقة التى يريدون سلوكها، ونراهم وهم يرددون الأمر بين الجانبين : جانب القتل ، وجانب الالقاء فى الجب ، ونفهم ان قد رجح الأمر الاخير · ثم نلحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملى ، فهم يحتالون على أبيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب ، وهم يؤكدون له أن هذا لن يكون، وكيف يقع وهم عصبة ؟ وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم غافلون ؟ انهم اذن لخاسرون · واخيرا يمضون بأخيهم الى حيث أرادوا ، ويجيئون أباهم عشاء وهم يبكون ·

ونلحظ هنا نوعا من السذاجة يلائم العقل العربى أو العقل البدوى ، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب ، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل اخبار أبيهم أن قد أكله الذئب ، والتجاوب بين الخوف والاعتذار سذاجة فى البناء القصصى تلائم طبيعة البداوة فيما أعتقد ·

ونلحظ بعد ذلك تلك السحابة الرقيقة من الحزن التى تغشى نفس يعقوب ، ونسمع حديثه اليهم وايمانه القلبى بأن أنفسهم قد سولت لهم أمرا ، ونرى استسلامه للقدر : فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون ·

ثم نمضى مع يوسف حين يلتقط من الجب وحين يشرى بثمن بخس ، فنترك فلسطين الى أرض مصر ، ونترك البادية الى المدينة ، ونستقر فى بيت من أعظم بيوتها هو بيت العزيز ، ونستمع اليه وهو يوصى به خيرا لعله أن ينفعه أو يتخذه ولدا ، وهنا نحس أن يد العناية قد لمسته فمكنت له فى الأرض وعلمته من تاويل الأحاديث ، ثم أخذت تدفع به الى الأمام لينتصر على الكيد والحسد ، ويفوز على من أرادوا التخلص منه لتستقيم لهم الأمور ، وتستقر فى نفوسهم أسباب المودة والسعادة ويكونوا من بعده قوما صالحين ·

وفى بيت العزيز تتعقد الأمور ، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة ، وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل ، وتحس المرأة بالهزيمة فيملؤها ذلك حقدا وغيظا ، ويبدأ ـ بالنسبة الى يوسف ـ كيد جديد وتتهمه امرأة العزيز بأنه قد أراد بها السوء ، وأن جزاءه يجب أن يكون السجن أو العذاب الأليم · وهنا يدخل القصة عنصر جديد هو عنصر الكشف عن حقيقة الجريمة ، ويستدل العزيز على أن فتاه لم يخنه من أن قميصه قد من دبر ·

وتتوالى الأحداث وهى طبيعية متساوقة ، اذ يسمع النسوة بالمدينة عن الحادث

فيؤخذن كما هى عادتهن ـ باكثار الحديث عنه ، وتسمع امرأة العزيز بما يدور حولها وتفكر فى مخرج من هذا المأزق ، فتهديها فطرتها الى ذلك الاجتماع الذى ينقلب فيه العاذلات عواذر اذ يؤخذن بجمال الفتى ، ويرون أنه ليس من البشر ، وأنه ليس الا الملك الكريم • وتحس امرأة العزيز أن قد ملكت ناصية الموقف ، فيعاودها حرصها على اشباع رغبتها الجنسية وتعلن أمامهن أنها قد راودته عن نفسه فاستعصم ، وأنه ان لم يفعل ما تأمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين •

ويختار يوسف الفاضل السجن ، ويرى أنه أحب اليه مما يدعونه اليه ، ويخشى انه ان لم ينصرف عنهن أن تتغلب فيه النزعات البشرية والعواطف الجنسية فيصب اليهن ويفعل ما يفعله الجاهلون • وهنا تلمس يوسف يد العناية فيستجيب الله لدعائه ويصرف عنه كيد النساء •

وندخل مع يوسف السجن ونلحظ ما أفادته العناية الالهية ، كما نحلظ ما فيه من شعور دينى ، فهو يعبر الرؤيا لصاحبيه ، وهو يدفعهم الى التوحيد وعبادة الواحد القهار . وهو ينهاهم عن عبادة الأوثان ، وهو يطلعهم على أن ذلك فضل الله عليه •

ثم يحمل الناجى من صاحبيه أمانة ويطلب اليه أن يذكره عنه ربه ـ وان يكن الشيطان قد أنساه • ويعاود الحظ يوسف وتلمسه يد العناية حين يرى الملك رؤياه وحين يعجز الملأ عن تعبير تلك الرؤيا ، اذ عند ذلك يذكر الناسى من صاحبى يوسف ويذهب اليه مستفتيا ، ويجيبه يوسف الى ما طلب ويعبر له الرؤيا ، ويدل على القصد من البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات •

ويطلب الملك يوسف ويأبى هذا حتى يحقق الملك مبتغاه ، وحتى يرسل الى النسوة ويقف منهن على الحقيقة فيما كان من امره مع امرأة العزيز ، وتأتى هذه وتعلن أنها هى التى راودته ، وأنه صادق فى كل ما قال ، ويأتى يوسف ويطلب الى الملك أن يجعله على خزائن الارض ، ويستجيب الملك وينال يوسف مبتغاه •

وفى مدة السجن هذه نلحظ أثر العنصر النبوئى أو الغيبى والدور الذى لعبه فى القصة : نلحظ كما لحظنا من قبل أثر العنصر الجنسى فى توجيه حياة يوسف من الكيد له فى اثناء مقامه فى بيت العزيز الى أن انتهى به ذلك الكيد الى ابقائه فى السجن حتى أنقذته يد العناية وخرج من السجن بسبب رؤية الملك •

***

وتعود بنا القصة الى بعض الذكريات السابقة فتجمع بين يوسف واخوته مرة ثانية فيعرفهم وهم له منكرون ، ويحتال عليهم حتى يأتوه بأخ لهم من أبيهم ويحتالون هم بدورهم على أبيهم ليرسل معهم ذلك الأخ ، ويحتاط والدهم كما احتاط أولا ، ولكن القدر الذى يوجه القصة يدفعه الى القبول ويذهب الأخ الى أرض مصر حيث يقيم يوسف • فآواه اليه وقال انى أنا أخوك فلا تبتئس •

واحتال يوسف عليهم مرة ثانية حين جعل السقاية فى رحل أخيه ، وحين أذن المؤذن بأنهم سارقون ، وحين سألهم عن جزاء السارق ، فقد كان هذا الجزاء هو كل

ما يطلب يوسف ، وما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله . ويحاول هؤلاء الاخوة دفع أحدهم مكان السارق ويأبى يوسف ويستعيذ بالله أن يكون من الظالمين ، ويرحل الاخوة ويبقى كبيرهم فلن يبرح الارض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله . ويطلب اليهم أن يخبروا أباهم بكل ما حدث ، وأن يدفعوه الى السؤال عن صحة الحادثة بسؤاله أهل القرية التى كانوا فيها . أو العير التى أقبلوا فيها . وهنا تعاود الرجل أفكاره السابقة ويخبرهم بأن قد سولت لهم أنفسهم أمرا ، ويستسلم للقدر كما استسلم له أولا ، ويصبر ذلك الصبر الجميل الذى يحوطه الأمل بأن الله سيأتيه بهم جميعا وتغشى الرجل سحابة من الحزن قاتمة حتى ليكاد أن يكون من الهالكين . وتطوف بنفسه خواطر ملهمة فيدفع أبناءه الى الذهاب للتحسس من يوسف وأخيه ، ويطلب اليهم ألا ييأسوا من روح الله فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . ويذهب هؤلاء ويلتقون بيوسف للمرة الثانية ، وهنا يعيد الى أذهانهم ما ألم بها من حيل المكر والكيد ، ويسالهم عن فعلتهم التى فعلوها وهم جاهلون .

ويعرف القوم الحقيقة ، ويسالونه عن نفسه فيقدم لهم نفسه وأخاه ، وينبئهم بأن ذلك جزاء الصبر والتقوى ، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين . ويعترفون بالخطيئة ، ويعترفون له بالفضل وايثار الله له عليهم . ويحس يوسف بما فى أنفسهم من احساس باللوم والتعنيف ، فيخفف وقع ذلك عليهم فلا تثريب عليهم . اليوم يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين .

ويعود الاخوة بقميص يوسف ، ويلقونه على وجه أبيهم فيرتد اليه البصر ، ويقبل الأب والأبناء ، ويستقبلهم يوسف استقبال الأبن البار والأخ العطوف ، ويفيض الحنان من قلبه وتجرى عبارات الشكر على لسانه ، ويذكر أباه بما كان بينه وبينه من حديث « **فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ، ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم** » .

فأنت ترى هذه القصة بنيت بناء محكما من حيث فن البناء القصصى . ففيها وحدة الموضوع ، واحكام التصميم وفيها جودة الحبكة . وفيها الانتفاع بالحوادث الاستطرادية .

وشخصية يوسف هى الشخصية الرئيسية التى تدور حولها الحوادث . اما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفى كلما دعت الحوادث ، فيظهر الاخوة فى أرض فلسطين حيث كان يقيم معهم ، ويختفون حيث رحل . وتظهر السيارة كوسيلة لانتقال يوسف من البدو الى الحضر . ويمضون الى غير رجعة حين باعوا للعزيز . ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها ونسوة المدينة .

كل يؤدى دوره المنوط به حيث يكون مسرح الحوادث بيت العزيز . ثم يختفون

حين ينقل يوسف الى السجن · وهنا يظهر صاحباه ، ويتركه أحدهما الى غير رجعة حين يصلب ، ويعود اليه الثانى مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه ·

ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين نسمع رؤياه ، ويبقى حتى يسلم خزائن الأرض ليوسف بعد ان يبرئه من دعواه ، ويحضر النسوة ليعترفن بما قدمت أيديهن من شر لهذا الفتى · ويختفى الملك والنسوة ويظهر اخوة يوسف مرة ثانية ، ويبقون على المسرح حتى ينقلون الى مصر ومعهم أبوهم ومن شاء ·

فأنت ترى أن الشخصيات الرئيسية هى شخصية يوسف ، وأن الشخصيات الأخرى شخصيات ثانوية تظهر وتختفى حسب الخطوط أو حسب ما يؤدون من أدوار وقد حللنا فيما مضى شخصيتين من هذه الشخصيات هما يوسف وشخصية امراة العزيز ·

والأحداث فى هذه الشخصيات أحداث عادية تقع لكل شخص وفى كل زمان ومكان ، فليس يبعد أن يرحل اسرائيلى من بلد الى آخر وهو فقير معدم ، فتصير اليه مقاليد بيت المال ، وليس يبعد أن تقع كل هذه الأحداث لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف ـ حتى حادث المراودة ، ولا تستغرب الاحالة القميص على وجه أبيه وارتداده بصيرا فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء ·

***

وأمكنة الأحداث هنا متميزة بعض التميز ، فهى حينا أرض فلسطين التى كان يسكنها يعقوب ، وهى حينا أرض مصر : بيت العزيز أو السجن أو بيت المال ·

والآراء والأفكار عادية ، وكذا ما كان يمضى بين الشخصيات من حوار ، والانفعالات القوية والغرائز المؤثرة فى مجرى الحوادث ، من الأمور التى تؤثر أثرها فى كل لحظة من لحظاتنا فى الحياة · فالحقد والحسد والحب أقوى العواطف والغرائز فى القصة ، وهى الأمور التى تلمس فى كل مجتمع منذ خلق الله الأرض والسماء ·

وعنصر الرؤى هو الذى يجرى قليلا مع الاتجاهات الدينية حيث تفسر على أنها الأمور الغريبة من أمور الوحى ، واذن فلابد من أن تصدق وتقع فى الحياة ·

وتفاوت الحظوظ موجود ، واختلافها على يوسف واضح ، حتى لايحتاج الى تفسير أو ايضاح ·

وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفنى المحكم البناء · وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التى توزعتها القصص المختلفة فى القرآن ·